أزياء البيارتة وعاداتهم في اللباس في مدونات الرحّالة

سهيل منيمنة*



بيارتة في لباسهم التقليدي نهاية القرن التاسع عشر

في مطلع القرن التاسع عشر كان الأوروبيون المقيمين في بيروت ودمشق يرتدون الجلابيب الشامية التقليدية، ليس احتراماً لعادات أهل هذه المدن في لباسهم أو اقتداء بهم، ولكن لشعورهم أنهم يكونون أكثر أمناً وسلامة. ولكن هذا الأمر سرعان ما تبدّل ابتداءً من سنة 1830 عندما أمر السلطان العثماني، غالباً بضغوط من محمد علي باشا، أن يرتدي موظفو الدوائر الحكومية اللباس الافرنجي. ومن خلال الصور القديمة التي التقطها المصورون الأوائل في النصف الثاني من ذلك القرن في بيروت، يمكننا أن نرى بوضوح اختلاط اللباس التقليدي والافرنجي في الشوارع والساحات والأسواق. في هذه الأماكن، ربما كان اللباس التقليدي البيروتي هو أول ما يلفت النظر، وفي كثير من الأحيان كان عن الوضع الاجتماعي لصاحبه.

كتب مؤرخ بيروت الدكتور حسان حلاق رحمه الله: "كانت العائلات البيروتية (البيارتة) تكّون المجتمع البيروتي الذي شهد موجات من الوافدين الأتراك والأوروبيين وموجات أخرى وافدة من الولايات الإسلامية والعربية. وعبر الحقب التاريخية تمت حركة التشابه في العادات والتقاليد والممارسات مع ما تتميز به العائلات البيروتية من بعض التباين بسبب المعتقدات الدينية. وبشكل عام فقد كان المجتمع البيروتي مجتمعا متشابها في كثير من مظاهره، وقد كانت المسلمات والمسيحيات محتجّبات إلى حد كبير، كما أن المسلمين والمسيحيين من الرجال كانوا يلبسون ثياباً موحّدة كالسروال العثماني (الشروال) والقمباز، والصدرية الكشمير واللاستيك (الجزمة) خاصة الأغنياء منهم، ويعتمرون الطربوش. مع العلم أن الفئات المثقّفة من مختلف الطوائف، قد بدأت تتفرنج بلباسها وعاداتها وتقاليدها منذ أواخر القرن التاسع عشر." [حسان حلاق: بيروت المحروسة، ص 9]

أما الأب هنري لامنس اليسوعي فقد ذكر أنه في منتصف القرن الخامس عشر كانت بيروت قبلة الشعوب الشرقية تختال في مينائها السفن العديدة والمراكب الحربية تحت حماية أبراج عظيمة قامت على الرصيف من الحجر الأصمّ، وفي أسواقها الضيّقة وطرقها الملتوية تزدحم الأقدام، فمن أصحاب العمائم أو الكفاف الحريرية ومن لابسي البرانس البيض أو المضرّبات ، ومن مدجّج بالأسلحة المنزّل فيها من الذهب والفضة والنحاس أشكال النقوش. وكم من تاجر غنيّ وأمير خطير يعثر بحمّال وفقير. فيها التقت جميع الأمم واللغات وتعارضت الألوان والأصوات من زنجي السودان إلى الشركسي الأبيض، ومن الروميّ النزق إلى البدويّ الذي لا تهزّه ريح، ومن اليهودي المتلوّي إلى الإسباني المتغطرس، وقد اختلط بهم تجار البندقية وجنوة وبيزة. [المشرق عدد1]

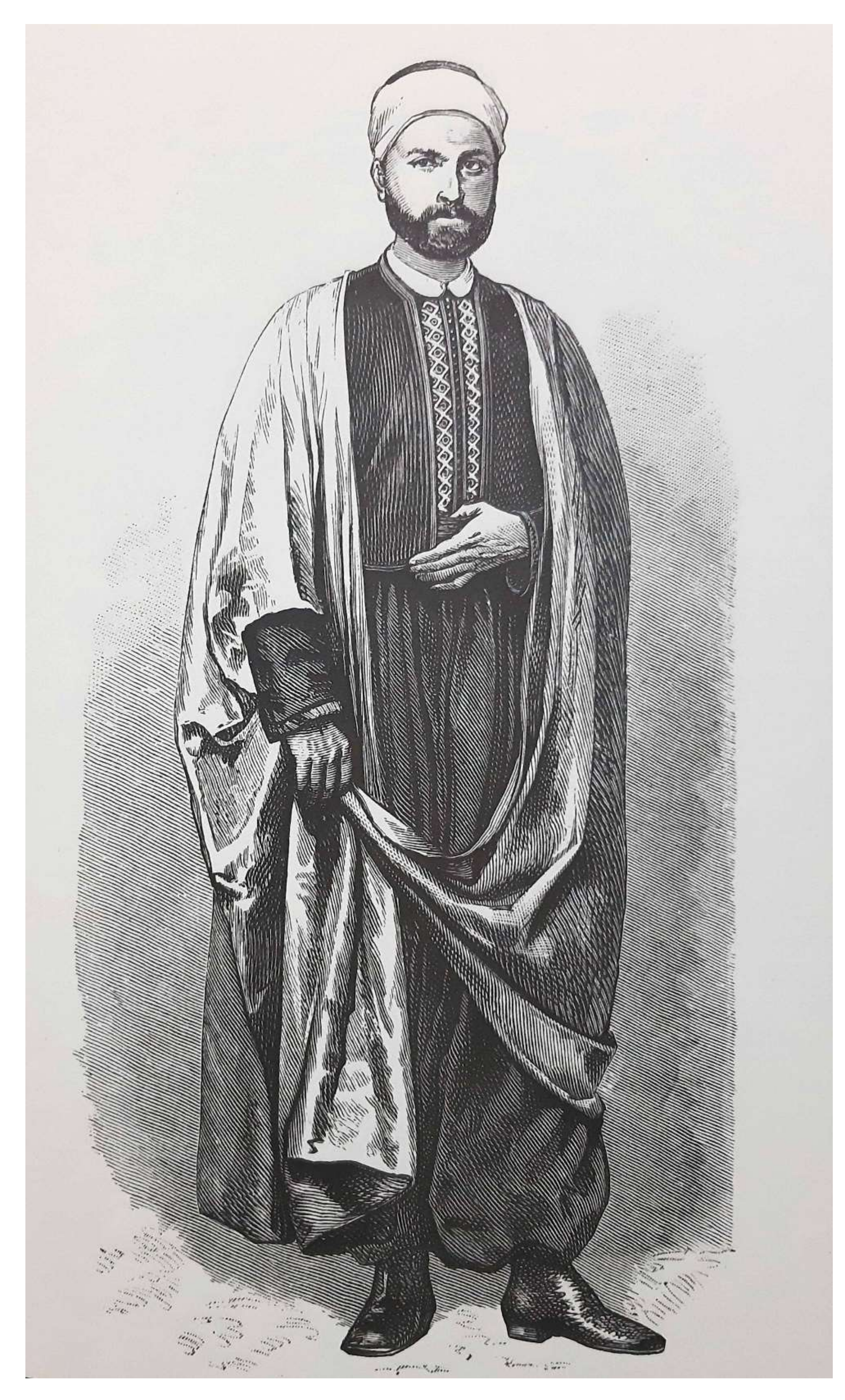
في مستهلّ القرن التاسع عشركان الزائر الغربي تؤثر فيه المشاهد المحلية الغريبة. فكان يرى الرجال بسراويلهم الواسعة أو غنابيزهم (جمع غنبار أو خنباز) المقلّمة، والنساء، سواء كن نصرنيات أو مسلمات يخرجن إلى الأسواق محجبات... وكان الغربي يرى الناس في هذا الجزء من العالم يعيشون في عالم حالم يسير ببطء. ولكن ما أن انصرم القرن حتى أصبح الغريب الزائر يشعر في بيروت أنه ليس غريباً في بلاد غريبة. وقد أسهب القس الأمريكي فان لينيب Henry J. Van-Lennep المولود في إزمير سنة 1815 في وصف الحياة الاجتماعية في بيروت وسائر لبنان في كتابه "*Bible Lands: Their Modern Customs and Manners*" المطبوع في نيويورك سنة 1875.

ولا شك أن الأوامر الخاصة بارتياد النساء الأسواق قديماً كان جائراً بحق النساء والرجال على حد سواء. ومع مرور الوقت تبدلت الأحوال وصارت النساء وما يرتدينه من لباس وتنوع الأزياء جزءاً أساسياً من النسيج الإجتماعي في المرافق العامة وخاصة أسواق المدينة. وقد قال الشاعر إلياس طُعْمَة الملقب بـ «أبي الفضل الوليد» في سوق الطويلة ببيروت:

أمَرَرتَ في سوقٍ من الأسواقِ ورأيتَ فيهِ تصادُمَ العشّاقِ
فحَسبتَ أنّ الأرضَ تحتك زُلزِلت من وَقعِ أحداقٍ على أحداقِ
إنّ النساءَ تنوَّعَت أشكالُها وثيابُها لِتَنوُّعِ الأذواقِ
فتَبرُّجٌ وتخَضُّبٌ وتفَنُّنٌ في الكشفِ عن سوقٍ وعن أعناقِ
فهناكَ نادِ على الجمالِ فإنهُ سلعٌ، وقُل: يا قاسمَ الأرزاقِ

يقول الدكتور يوسف نعيسة: "بقيت الأزياء الشعبية، في بلاد الشام بخطوطها العامة، صورة لتعامل الإنسان مع المحيط الطبيعي والتركيب الاجتماعي، وفلسفته في الحياة من جهة، ونتيجة لتركة تاريخية طويلة الأمد، فكان من تلك الأزياء ما يعود إلى أصول عربية قديمة مثل الكنعانية الآرامية والآشورية، أو غير عربية مثل الفارسية، واليونانية والبيزنطية والعربية الإسلامية. بالإضافة إلى مؤثرات الهنود وبعض القوميات الأخرى التي جاءت إلى بلاد الشام بأزيائها فتركت تأثيرها في هذا المجال. ومما يسترعي انتباه الباحث تعدد أزياء المدن آنئذ أكثر من الريف، لأن المدن كانت مقرّاً للفاتحين والحاكمين والتجار والغرباء عبر تاريخها. وبقي اختلاط الوافدين بالريف أقل مما حصل في المدن. وإذا ما استقرت قبائل وأقوام في الريف، فقد انعزلت عن بعضها بحدود معيّنة، وحافظت على أزيائها على مدى عصور طويلة. ناهيك عن تأثير البيئة والمناخ في رسم خطوط الأزياء وألوانها ونوع أقمشتها." [مجتمع مدينة دمشق، ص 571-572]

أما عالم الآثار الفرنسي لويس لورته فقد تطرق إلى هذا الموضوع ودوّن مشاهداته خلال رحلتيه إلى لبنان سنة 1875 وسنة 1880، ومما كتبه: "والمناديل المعروفة بالكوفيات والزنانير تأخذ بمجامع الأبصار بما فيها من خطوط ذات ألوان متوافقة بكثير من الذوق. ومن نكد الحظ أن استعمال الأصبغة الأوروبية طفق يُفسد ما كانت عليه الأنسجة القديمة من ألوان لماعة، متناسقة، ثابتة. ويَستعمل الكوفيات الجنسان في كل بلاد الشرق على وجه التقريب. وهي لا تُطرح على الأكتاف، ولا تلفّ على الأعناق وإنما تُعصب عصباً على الرؤوس. والنساء يتخذن منها زينة أنيقة جداً، إذ يحبكن حريرها الجميل المقصّب بجدائل شعورهنّ السوداء الطويلة مضفوراً بسلاسل صغيرة من الفضة. ويلف الرجال أحد أطرافها في شكل عمامة، ويسدلون طرفاً من وراء فيتموج على العنق ويحميه لذعة الشمس. ويضعون تحت الكوفيات على رؤوسهم المحلوقة عرقيات صغيرة من نسيج مطرّز تطريزاً لطيفاً، ثم يلبسون فوقها الطرابيش التركية وهي من لبّاد أحمر، لها شرّابات طويلة من حرير أزرق اللون. وتثبت الكوفيات بحبال ثخينة (عقالات) مفتولة من وبر الجمال، سوداء مقصّبة، وتُعقد عقدة أنشوطة، وتنتهي أطرافها، عند الأغنياء بأهداب من الذهب تنحدر بأناقة إلى الأعناق. [مشاهدات من لبنان. ص37-38].



تاجر بيروتي باللباس التقليدي سنة 1873

عن Richard Chahine, Orientalistes au Liban

دوّن الروائي والرحالة الإيرلندي أليوت واربيرتون مشاهداته أثناء زيارته لبيروت سنة 1843، وكتب عن لباس رجالهم في الجزء الثاني من كتابه "الهلال والصليب" ما يلي: " الرجال، مسيحيين ومسلمين على حد سواء، يعتمرون العمائم، وسراويل فضفاضة مربوطة عند الركبة، وصدريات حريرية مزرّرة تصل حتى الرقبة. وكان يُلبس فوق هذا، في أيام الآحاد والأعياد، شال كبير فضفاض يمنح المجموعات مظهراً رائعاً، كما يمنح الأفراد مظهراً كريماً للغاية."

عند نهاية القرن التاسع عشر أصبح الطابع العام لمدينة بيروت المتطورة باستمرار أوروبياً بالكامل تقريباً. صحيح أن الألوان الشعبية الزاهية الألوان والتي ما زال السكان الفقراء يلبسونها، والعدد اللا حصر له من طرابيش "فيس" [فاس] الحمراء، تذكرنا دوماً بأننا موجودون في الشرق وإن كان الكثير من المسلمين والمسيحيين المحليين يرتدون ملابس أوروبية... الشوارع الجديدة في بيروت عريضة وتضاء ليلاً بمصابيح غاز. أما في الأحياء القديمة والفقيرة فلم يزل الناس يتلمسون طريقهم ليلاً في الأزقة الضيقة المتعرّجة بواسطة الفانوس... [أوبنهايم. من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 15-16]

وعن عادات البيارتة في الملبس كتب توفيق الشرتوني سنة 1927:

"أول ما لفت نظري في بيروت بعد تغيبي عنها مدة أربعة عشر عاماً تعدد الأزياء. فرأيت الناس هنا يرتدون الملابس المختلفة كالعقال والكوفية والقفطان والعمائم والسراويل والطربوش والقنباز والبرنيطة والبنطلون وما شاكل فقلت في نفسي لا شك بأن تعدد الأزياء ناتج عن تعدد المشارب. تعجبت كثيراً من كلف الناس وانشغافهم بكل شيء أجنبي من لباس وأخلاق وعادات وخصوصاً السيدات والأوانس اللواتي يحسنّ لغات الافرنج معنىً ومبنىً ولا يعرفن شيئاً من لغتهن العربية الشريفة، وطالما سمعت كلمتي "بونجور وبونسوار" على جميع الأفواه حتى صرت توّاقاً لأن أسمع في بلاد الضاد كلمة "صباح الخير" ولو من أفواه الشيوخ!.. الناس هنا يهتمون بالفخفخة والمجد الباطل ويحبون المباهاة كباراً وصغاراً ولكن بغير الحقيقة..." [الحياة في لبنان، ص 27-28]

أما عند النساء فكان الغالب في تلك الفترة لبس الملاية. وكانت تلبس فوق الثياب اليومية من قطعة واحدة تغطي كامل الجسم، وقد تتالف من قطعتين. وإذا كانت من معطف واحد مفتوح وله أكمام فتسمى "الدراعة". أما الوشاح على الرأس فكان يسمى "الفيشة".

إن أذواق النساء في اختيار ملابسهن لم تختلف كثيراً بين دمشق وبيروت، بطبيعة الحال. ومما دوّنه قساطلي سنة 1879 في هذا المجال قوله: "أما النساء فتكاد تكون ملابسهنّ واحدة. وقد أقلعن عن الملابس القديمة بالتمام حتى لم يعد لها أثر. وعوضاً عن تلك الربطات (عمائم كبيرة) التي كانت توضع على الرأس، أضحت رؤوسهنّ مكشوفة أو مغطاة بقماش رقيق جداً. ومنذ مدة أخذن يتبعن الأزياء الافرنجية، فصرت

تراهنّ كل يوم بزيّ جديد، على أنهنّ مع كل اجتهادهنّ لا يقدرن أن يُرتّبن ملابسهنّ كالنساء الافرنجيات، وقد تولّد فيهنّ بغض الأقمشة الوطنية وصِرن يحسبنَ كل قماش غير موسوم بوسام افرنجي كشيطان رجيم. على أنه في المدّات المتأخرة لشدة الضيق الذي صادفه رجالهنّ تغيّرت أميالهنّ قليلاً واعتبرنَ منسوجات الوطن بعض الاعتبار وصرنَ يلبسنها. ولا تخرج امرأة من بيتها بدون إزار، ويلبسن غالباً على وجوههنّ المناديل لكي لا يراهنّ أحد. [الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ص 127].

بحلول العام 1880 كانت النساء المارونيات والدرزيات في بيروت يلبسن من الثياب ما يقارب الثياب التي تلبسها نساء إزمير وسواحل آسيا الصغرى وفينيقيا: سراويل واسعة منفوخة، كانت قديماً قصيرة، ثم طالت، فصارات تشبه التنورات. والأنسجة المستعملة لها هي من القطن المحوك في شكل أزهار، المصنوع في إنكلترا أو أميركا، وعليها حبال مجدولة من النسيج الخشن المخرّم المنسوج في أوروبا. وتلبس نساء الطبقة الميسورة، بعض الأحيان، في داخل منازلهن، الثوب الوطني القديم، إلا العمامة. ومن نكد الحظ أن الأزياء الأوروبية تزداد انتشاراً كل يوم. ولن يمر زمن حتى تصبح لا ترى من الثياب الوطنية اللطيفة إلا ما تلبسه نساء القرى البعيدة عن الساحل. [لورته: مشاهدات من لبنان، ص 43].

في سنة 1872 زار الدبلوماسي الفرنسي الفيكونت دى فوغيه (Marie-Eugène-Melchior vicomte de Vogüé) بيروت، وبعد جولة له في اسواق البلدة، وصف جوانب من حياتها الاجتماعية كاتباً: "وخارج الأسواق تعتبر الطرقات بمعناها المألوف واسعة ومستقيمة وعلى الطريقة الأوروبية، وحولها بيوت جديدة من الطراز الفرنسي والعربي، بداخلها أشجار التين والصبّير والآكاسيا والرّمان. ومايلفت النظر هو أشكال السكان، وفي إطار هذه العلاقة، يظهر الفارق كبيرا بين منظر المدينة التركية ومنظر المدينة العربية. ويجد المرء في أي مكان وراء هذه الأزياء المختلطة والمزاجية مع بعض التعديلات في العائلة والقبيلة، البنية الطويلة والنحيفة والعضلات الصّلبة والجبهة العريضة والبارزة للعرق السامي. ويشاهد المرء أيضاً بعض الدروز الملتفين على نحو مميّز بعباءاتهم، وبعض الشيوخ الشاميين والبدويين الهذيلين والقذؤين وكذلك الأروام (اليونان) بالإضافة إلى أناس من الجبل والصحراء. لكن العنصر المسيطر على التجارة هم الموارنة."

يتابع: "المسلمات وبنات المسيحيات الصغار، هنّ محجّبات كلّياً، وأمهات العائلات غير متزمتات، وهذا ما يتّفق عليه جميع الرّحالة إلى سوريا. عند عبورنا الحيّ اليهودي، وجدنا بعض الفتيات من ذوات الجمال المميّز، ومع قدوم الليل توجهنا إلى أحد المقاهي الصغيرة في الساحة البيروتية الكبرى، حيث العديد من العاطلين عن العمل، أناس من عامة الشعب، ومكاريّة وتجار ينتظرون وكأنهم تماثيل، النارجيلة المزودة بكل لوازمها بين أيديهم ينتظرون غروب الشمس. نحن في شهر رمضان، وهو شهر صوم المسلمين، والنظام الصارم الذي تفرضه الشريعة النبوية، يمنع كل طعام وحتى دخان التبغ، قبل انقضاء النهار. ويتقيد المسلمون بدقة بهذه الفرائض، وكل الشرقيين، إلى أي دين انتموا، من ناحية الممارسة الخارجية والمادية...". (*Syrie, Palestine, Mount Athos: voyage aux pays du passe 1876*).

ذكر الأب وليم جيويت William Jowett في رحلته إلى الشرق Christian Researches in Syria and the Holy Land أنه أثناء إقامته في بيروت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1823 أن مضيفته سيدة المنزل أخرجت من خزانة ملابسها ما لا يقل عن عشرة أثواب خارجية ثقيلة، ومعاطف متعددة الألوان، مطرزة ومتلألئة بالذهب والفضة والزهور... البعض منها قديم قدم تاريخ زواجها، والبعض يبدو أقدم من ذلك. هذه الملابس يتم ارتداؤها فقط في الأعياد والمناسبات الكبرى... وترتدي عددًا لا يُحصى من الضفائر التي تتدلى على طول ظهرها وتنتهي بالترتر الذهبي؛ والتي قد تبلغ قيمتها، مع تلك التي ترتديها على رأسها، ما بين خمسة إلى عشرة جنيهات إسترلينية. [Jowett, p. 97].



بيروتي وزوجته باللباس التقليدي ستينيات القرن التاسع عشر

Ottoman Imperial Archives

ويقول المونسنيور ميسلين في كتابه "الأماكن المقدسة" المطبوع في باريس عام 1876: "... على أن نساء بيروت، يلبسن تحت الزي الخارجي المضحك بغرابته وعدم هندامه، ثياباً فاخرة مفوّفة، معممات الرؤوس بكياسة فائقة، وعليها قبعات من الذهب المطرز بالنقوش، وغدائر من الشعور الكثيفة، تزينها سلاسل طويلة من النقود الذهبية ويرتدين أيضاً صدرية مطرّزة بإتقان رائع ومفتوحة على الصدر وسراويل فضفاضة من الحرير، ويتمنطقن بزنانير ذات ألوان زاهية حادة متنوعة، وينتعلن خفافاً حمراء أو صفراء. هذا هو الزيّ المألوف في الطبقات الميسورة والغنية. [طه الولي: بيروت في التاريخ.. ص 58]

في رحلته إلى الشرق، زار القس الاسكتلندي فيري مونرو أحد البيوت الشامية في شهر أيار/ مايو سنة 1835، ودون ما شاهده من أزياء النساء في كتابه "تجوال في سوريا" قائلاً:

" في فساتينهن سيطر الحرير العادي والمطرز، وبدا أنه يشكل جزءاً من كل ما هو خارجي ومرئي. القميص طويل جداً وفضفاض بالقرب من الكاحل. الجزء الأعلى منه منخفض من الأمام ويكشف الصدر، وفوقه رداء مطرز على شكل معطف قصير، بأكمام حتى الرسغ، مقصوصة ومفتوحة من المرفق إلى الأسفل. أما شملة الرأس فهي موضوعة إلى حد ما على جانب واحد، ومزينة بخيوط من اللؤلؤ ومثبتة بدبابيس من الفيروز والزمرد. ويتم لف وشاح كشميري أو بغدادي بشكل غير محكم حول الخصر، ويمكن رؤية شبشب أصفر صغير أو قدم بيضاء صغيرة في الأسفل." [الجزء الثاني، ص 78-79]

ومما دوّنه الرحالة الشهير محمد عبد الجواد القاياتي عن عادات البيارتة في الملبس سنة 1882:

"أما عاداتهم في الملبس، فثمة ـ وهو الغالب ـ من يلبس الطربوش الإفرنجي والسترة والبنطلون ويحلق لحيته ويبقي شعر رأسه، وثمة من يرتدي القفطان (القنباز)، وفوقه الجبّة أو المضربية أو السترة الطويلة، وكلاهما ينتعل الجزمو (الليستيك)، فيما قلة تنتعل المركوب من الفقراء. وثمة أيضاً من يتخذ البدلة العثمانية والسروال الكبير الواسع والطربوش الإسكندراني. كذلك النساء يختلف لباسهنّ، بين "الإزار الأبيض الناصع أو الملاءة الحرير"، أو المناديل الرقيقة الإسلامبولية على الوجوه، وفي الأرجل الجزم الإفرنجية بالنسبة إلى المسلمات، و"الفساتين الواسعة من الشيت والصوف الإفرنجي والحرير الملون"، مع الطرح الرقيقة أو المناديل، بالنسبة لنساء النصارى اللواتي يظهرن سافرات الوجوه...". [نفحة البشام، ص 51]

في كتابه المطبوع سنة 1896 دوّن الكاتب والصحافي الأمريكي ألبرت بايسون تيرهيون Albert Pyson Terhune مشاهداته في بيروت في كتاي أسماه "سوريا من على صهوة جواد"، ومما قاله عن ملابس البيارتة في ذلك الوقت: "ناس وبيوت تتناقض مع شوارعنا الأمريكية. نرى هنا مبانٍ من الحجر البني وعلى سطوحها القرميد الأحمر, ورجال يرتدون بذلات سوداء ورمادية و بنّية, فالموضة متساهلة ولا تتبدل بسهولة. الطربوش اللامع مع العباءة ذات اللونين الأبيض والبني, والوشاح المتدلي من الكتف إلى الركبة وسترات وسراويل مختلفة حسب أذواق مرتديها من الرجال. أما أزياء نساء المدينة ومنهن المحجّبات فهي بشكل عام متعددة الألوان".

وفي عام 1867، زار بيروت الطبيب والصحافي جاكوب فريز Jacob B. Freese ونشر كتاباً عن رحلته في الشرق تحت عنوان: "العالم القديم: سوريا وآسيا الصغرى". في كتابه هذا يتحدث عن تنوّع الأزياء في شوارع بيروت والذي يرتبط برأيه بتعدد أتباع الطوائف الدينية فيها، فيقول [عن ترجمة للباحث نبيل شحاده] انك ترى الأتراك التقليديين يرتدون القفاطين الطويلة مع عمامات منتفخة بيضاء أو خضراء التي تحق لمن كان من عليّة القوم أو منتسبا للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) او لمن حجّ بيت الله الحرام في مكة المكرمة, كما يمكنك أن ترى المسلم العادي يسير في طريقه بهدوء ،يداعب بيد لحيته فيما اليد الأخرى تستند على خنجر أو على حقيبة ادوات الكتابة المعلّقة في حزامه. وفي بيروت لا ترى كثيرا من النساء يطفن في الشوارع , وجميع النساء المسلمات يخفين وجوههن بقماش من الحرير الأسود أو القطن يتدلى إلى الصدر, وإلى جانب ذلك يرمين أيضًا على رؤوسهن قطعة من الشاش الأبيض الفضفاض (موسلين) معلقة على ظهورهن كلما اقترب مرور أحد من الرجال. أما الشابات فيزحن أغطية الوجه قليلا و يكشفن عن عيونهن السوداء اللامعة ، الا انهن غالبا ما يتعرضن للتوبيخ من قبل الكبيرات في السن واللواتي يتمتعن بصرامة أكبر. ثم ينتقل "فريز" الى النساء المارونيات, فيقول أنهن يضعن أغطية بيضاء فوق "طناطير" على رؤوسهن ، ويسقطونه على وجوههن المستديرة "الجميلة" من حين الى آخر لإخفائها من نظرات الغرباء, أما النساء الكاثوليكيات العرب فهن لا يغطين رؤوسهن و وجوههن, ويزيد "فريز" في مدحهن و التغزل ببعضهن فيقول :"شخصياتهن رائعة و تتمتع وجوههن بجمال نادر".



سيدة بيروتية حوالي سنة 1859

للمصور الفرنسي Henri Sauvaire

مجموعة المؤرخ بدر الحاج

وقد وصف كريمسكي لباس رجل بيروتي (الشيخ جمّال) وابنتاه عام 1897، فقال عن هندام الرجل:

"كان يرتدي شروالاً أسود واسعاً ذا ذنب (ذيل)، وتنحدر عباءة سماوية واسعة عن كتفيه، وعلى رأسه كوفية حمراء مرقّطة بالبياض، مكلّلة بعقال مطرّز بحرير أسود، ويذكّرك ذلك بغطاء رؤوس النساء المتدينات، أو الرهبان، أو قد يكون بشكلٍ ما شبيهاً بالغطاء الذي تطرّزه النساء لدينا على ماكينة الخياطة، وأطراف كوفيته ذات الشرّابات تتهدّل على رأسه وكتفيه، أما العقال فيلتف حول رأسه كثعبان أسود". وعن لباس الابنتان قال: "والشبحان الأنثويان هما ابنتاه، وكانتا تسيران خلفه. وكانت كل واحدة منهما ملفوفة بملاءة بيضاء واسعة من رأسها إلى أخمص قدميها، تشبه الكيس أو الكفن، والملاءة تدعى غطاء. عند الردفين كان الإزار مزموماً، وكأنه محزّم بحزام غير مرئي؛ ولذا، فقد بدا الجزء السفلي منه كتنورة بيضاء، أما الجزء العلوي فينهدل على الجسم واليدين ككيس ملبوس من الرأس، وبشكل ما بدا مخيطاً إلى تلك التنورة. وإلى ذلك "الكيس" أضيفت قطعة قماش حريرية فوق الرأس، واسعة لكنها مطوية بعناية تغطّي الأذنين، وتكشف العينين وباقي الوجه. فتحتها تلك كانت مؤطرة بالأسود والأصفر، وتلك القماشة تدعى المنديل، وهو كالحجاب، لكنه لا يغطي الوجه، إلا إذا رُفع طرفُه. [1897 قصص بيروتية، ص 91-92].



سيدتان من بيروت سنة 1865

تصوير Ludovico Hart

مجموعة المؤرخ بدر الحاج

ومع أن "الطنطور" يعتبر غطاء الرأس التقليدي عند فتيات ونسوة جبل لبنان، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يُشاهد في بيروت قديماً. دون الدبلوماسي والرحالة الاسكتلندي دافيد أوركهارت David Urquhart في كتابه "لبنان (جبل سوريا) تاريخ ومذكّرة" المطبوع عام 1860 عن الطنطور كما شاهده أول مرة سنة 1850 قائلاً:

"عندما انعطفت إلى زاوية أحد المنازل، رأيت ست فتيات ونساء، ينتفضن على الصخور، شامخات بطنطورهن، الذي يدل ارتفاعه أنهنّ من طبقة عالية. لامست الزخارف الثقيلة الأرض محدثة صوت خشخشة؛ يتتطاير حجابهن الأبيض مثل الأعلام، كاشفاً عن وجوه متفتحة وضاحكة، ورؤوسهن كأنها عبارة عن وفرة من الجواهر والزهور؛ أعناقهن مثل أصنام المعابد الهندية، صفراء مع ذهب متلألئ، وأثواب ذات لون بني محمر، متلألئة من كل مكان بالنجوم، ومهدبة بدانتيل من نفس المعدن. ... يا لها من عادة رائعة هذه الزائدة المثبتة على الرأس يوم الزفاف، وتبقى هناك حتى الموت، في النوم، في المرض، في العمل المنزلي في الحقل، هناك تجلس، معقودة ومثبتة...".

تجدر الإشارة إلى أن أوركهات تابع كلامه في نفس السياق ذاكراً علاقة الطنطور بمعتقدات الموحدين الدروز برواية لم أجد لها أصلاً في أي مصدر أو مرجع أو تواصل، لذلك استبعدتها من النص.

بعد ما كتبه أوركهارت عن الطنطور بسنة واحدة، قام الكاتب والشاعر الفرنسي المعروف بإسم جيرار دي نرفال Gérard de Nerval (إسمه الحقيقي Gérard Labrunie) بزيارة إلى بيروت، وكتب عن أزياء النسوة في بيروت سنة 1851 خلال زيارته لمنزل صديق مسيحي له فيها. نقرأ له في كتابه "رحلة في الشرق" ما يلي:

" إذا كنت على معرفة خاصة بسيد المنزل، فإن السيدات يكرموك بحضورهن، ويقدمن لك شخصيًا الشربات أو المربّى، ثم يبقين في غرفة الجلوس دون حجابهن، مما يسمح لك بتفحص ملامحهن الجميلة و ملابسهن الفاخرة في وقت فراغك. تراهن يرتدين بنطالات واسعة قريبة من الكاحل. ويغطى هذا الثوب الأول برداء طويل مفتوح من الأمام، مع وشاح حريري ذو ألوان زاهية يلبس كحزام، أو بشال من الكشمير الهندي. ثم تأتي سترة ضيقة مطرزة بخيوط ذهبية، بأكمام ضيقة تصل إلى المرفق. إن شفافية بلوزاتهن تجعل صدورهن مرئية بشكل خفي. وينسدل شعرهن، المضفر بعدد لا يحصى من الضفائر، على ظهورهن في ضفائر تضاف إليها ضفائر حريرية ذات ألوان متطابقة، مرصعة بعملات ذهبية ومثبتة بشكل مستقيم بوزن الخواتم. ويرتدين قلنسوة صغيرة من الصوف الأحمر، مطرزة بالذهب، مع شرابة ذهبية سميكة، مثبتة فوق رؤوسهن بفخامة. حواجبهن ورموشهن مصبوغة بعناية باللون الأسود. يتم صبغ أظافرهم وكف أيديهم حتماً بالحناء إلى اللون البني المحمر، وهو لون غير مريح للناظر؛ العديد منهن يضعن المكياج أيضاً."

لقد تأثر البيروتي بالعادات والتقاليد الأوروبية نتيجة ازدياد عدد الأوروبيين في بيروت، وأقبل على شراء سلعهم ومنتوجاتهم، وأخذ يلبس الجاكيت إلى جانب القنباز والسروال. وهكذا حلّت التفتة البيضاء "عنبرتيس"محل الأنسجة القطنية القديمة، والجوخ "كوبونة" الأوروبي محل الصوف المحلّي، وأخذت حرائر فرنسا تستهوي النساء فيستعضن بها عما كان يُنسج محليّاً.

في العام 1910 أرسلت الفيكونتس سيسيليا اف لوتنبرج ـ وهي من النساء الشهيرات في عالم الأدب ومن المستشرقين الذين يحبون سوريا والسوريين ـ رسالة إلى جبران خليل جبران قالت فيها: "أنا أحب سوريا لأنها جميلة ولجمالها خاصة معنوية تنبه في نفسي عواطف غريبة سحرية وتذكارات بعيدة لطيفة. وأحب السوريين لأنهم أذكياء وتعساء لكنني أكره من السوريين تلك الطبقة المقلِّدة التي ترتدي الملابس الغريبة وتسكن المنازل المزخرفة وتتكلم اللغات الأعجمية. أنا أكره هذه الطبقة لأنها تركت محاسن التمدن الشرقي القديم ومالت إلى المكروه من المدنية الغربية الحديثة فهي الآن بغير لون تتميز به عن طبقات البشر".

فردّ عليها جبران برسالة مطوّلة هذا مطلعها: "هذه حقيقة جارحة يا سيدتي يسمعها المحافظون من الشرقيين فيحنون رقابهم متأسفين، ويعيها العصريون بينهم فيبتسمون. وبين أوجاع ذلك الأسف وسخرية هذا الابتسام تقف سوريا الآن وقوفَ حائر ضائع في ملتقى السّبل. أما أنا فلا أتأسف جزعاً عندما أرى رقعةً جديدة قذرة في ثوب سوريا القديم، ولا ابتسم فرحاً عندما أجد السوري جسداً جديداً لروح عتيقة. أنا أنظر إلى سوريا نظرة الإبن الشفوق إلى أمّه المريضة بعلّتين هائلتين: علّة التقليد وعلّة التقاليد. التقاليد يا سيدتي تجعل المرء كالأعمى السائر في نور النهار، والتقليد يجعله كالبصير السائر في ظلمة الليل. وما الفرق بين الرجلين سوى أن نفس الأول تحيط بالظلام ونفس الثاني محاطة بالظلام." [جريدة الحارس، العدد 3، 5 تشرين الثاني 1910].



*صيدلي. باحث في المجال التراثي والبيئي لمدينة بيروت

مؤسس جمعية تراثنا بيروت ومستشار المنتدى الرقمي اللبناني لشؤون التراث.